«السينما الإسبانية» للناقد محمد عبيدو:

بانوراما تاريخية للسينما الاسبانية منذ 1896 وحتى اليوم

دمشق ـ «القدس العربي»

ـ من أنور بدر:

تعتبر السينما الإسبانية أحد أكثر السينمات الأوروبية تميزا حيث حقق بعض رموزها صيتا عالميا. فالحديث أولا وأخيرا عن سينما القرن العشرين لا بد وان يمر بنماذج من السينما الاسبانية، فلا يمكن أن تحيد عن سينما لويس بونويل المعروف عالمياً وكارلوس ساورا وخوان بارديم والمخرجة ببلار ميرو أو ظاهرة أفلام بيدرو المودوفار مؤخراً، والذي حاز فيلمه «كل شيء عن أمي» على أوسكار أفضل فيلم أجنبي عام 2001، وأليخاندرو آمينابار الذي حاز الأوسكار عن فيلمه «البحر من الداخل»، كما لا يمكن تجاهل ممثلين وممثلات مثل أنتونيو بانديراس وفرناندو جوميز وفيكتوريا أبريل وكارمن ماورا وبينلوبي كروز وخافيير بارديم.

حول السينما الاسبانية صدر مؤخرا بدمشق كتاب للناقد السينمائي السوري محمد عبيدو ويتضمن إضاءة تاريخية لتطورات السينما الاسبانية منذ عام 1896 وحتى اليوم.

فيبدأ من انتاجات السينما الصامتة، ذاكرا أن عدد صالات العرض بلغ عام 1914 مع انفجار الحرب العالمية الأولى في المدن الاسبانية حوالي 900 صالة، واعتبر هذا العدد في ذلك الوقت كبيرا جدا حيث كانت اسبانيا مثل معظم الدول الأوروبية الأخرى، تستقبل الأفلام وتعرضها من كل بلدان العالم المنتجة للسينما.

ومع بداية السينما الناطقة، والألوان، وقبل الحربين العالميتين وبعدهما، لاقت السينما في اسبانيا صعودا وهبوطا متكررا موازيا لحالة البلاد السياسية المضطربة في فترة حكم الجنرال فرانكو الشمولية والقمعية جدا.

وقد لعبت السينما الإسبانية دورا مهماً في تحول إسبانيا إلى الديمقراطية ليس فقط بعد وفاة فرانكو 1975 بل في السنوات السابقة لوفاته، وحتى منذ سنوات الحرب الباردة 1945 ـ 1957 ومعها بدأت تتحول سياسة الانغلاق التي اتبعها نظام فرانكو أثناء وبعد الحرب الأهلية 1936 ـ 1939 إلى الانفتاح على العالم ـ رغم قيود الرقابة والتزمت الداخلي ـ واستفادت السينما الإسبانية من هذا الانفتاح الذي أراد النظام أن يجمل صورته بها أمام العالم، وبدأت حركة سينما جديدة واستفاد النظام نفسه من فوز بعض الأفلام الإسبانية بجوائز في المهرجانات الدولية.

ويفرد محمد عبيدو فصولا خاصة في الكتاب للإطلالة النقدية على علامات السينما الاسبانية الهامة مثل:

لويس بونويل المخرج السينمائي السريالي الذي عاش عصره بتفرد واسهم في العديد من حركاته الثقافية والفنية والسياسية، ولد في قلندية باسبانيا عام 1900 وتوفي عام 1983، أمضى فترة من شبابه بين 1917 ـ 1925 في مدريد حيث كانت الحركة الأدبية والثقافية والسياسية ناشئة فاجتذبه الجو وحدد له خيارات حياته، وهناك تفتح على المذاهب السياسية وعايش عن قرب الصراع بين الحكم الديكتاتوري والحركة العمالية والنقابية والفوضوية الآخذة بالنمو، مع ولادة الحزب الشيوعي الاسباني.

ويرى المؤلف أن «حياة لويس بونويل المضطربة القلقة المتغيرة لعبت دوراً رئيسياً مهماً انعكس على أفلامه المدهشة.. وأصبحت مرجعاً لا بد من الوقوف أمامه لتفسير الأسئلة الكثيرة والمحمومة التي يطرحها هذا العبقري في أفلامه.. والتي ما زالت، رغم مضي ثمانين عاماً أو يزيد على ظهورها.. تفتح لكل متفرج طاقة سحرية، وتدخله إلى حديقة مسحورة.. تعجز عن تصويرها أحياناً خيالات ألف ليلة وليلة والديكاميرون والمهاباراتا.. واندفاعات مسرح النو.. أو مسرح العنف والقسوة الذي نادى بها أرتو، هذا الفنان الذي دخل إلى عالم عمالقة السينما الذين لولا وجودهم لما كانت السينما هي السينما».

ثم يدخل الكتاب في عالم كارلوس ساورا أهم مخرجي اسبانيا عبر تاريخها، وأحد أبرز المخرجين الذين استطاعوا الخروج باقتراحات بداعية وثقافية أصيلة، بعيداً عن تأثيرات السينما الهوليوودية. سينما كارلوس ساورا ذات تأثيرات تعبيرية تمتلك فرادتها واستعارتها الخاصة بالمعالجة رغم اتكائها على ارض من الروح الاسبانية تبدو قديمة، يغلفها ضباب وعتمة وألغاز الحياة والموت، وكل ما يتكىء على الصراع الذاتي المحاط بالصمت، وعذوبة الموسيقى الاسبانية (الفلامنكو) القادمة من إبداعات الغجر وتطلعاتهم إلى الحرية والانعتاق من قيود وأغلال الواقع، في أفلام تنهض على ارض صلبة من الاسنادات والمراجع السينمائية ـ في محاكاتها لمتفرج لا يرضى إلا بالفرادة والدهشة ـ لأنماط مختلفة عما اعتادت السينما العالمية أن تقدمه من معالجات سطحية في انتاجات مبهرة فارغة المضمون والشارات، وتفقد الرؤية الخلاقة والإبداع الاستثنائي. انه واحد من الكبار المختلفين عن السائد والخارجين عليه، والساعين لتشكيل ملامح سينمائية خاصة نابعة من خصوصيات بلدانهم.

.. ويحلل الكتاب أفلام «بيدرو آلمودوفار» المؤلف السينمائي، صاحب اللغة الخاصة في التعبير، والتي اكتسبت سمات خاصة به، و أفلامه المثيرة للجدل مثل: «كعوب عالية» و«زهرة سري» و«لحم حي» و«كل شيء عن أمي» و«تحدث معها» و«تعليم رديء» ويقول «لا يكف آلمودوفار عن المشاغبة! ستظل أفلامه تثير الكثير من الجدل لأنها تنطلق بعقل المشاهد وقلبه إلى أفق رحب وأفكار كبيرة يحاول معظم الناس تجاهلها أو غض الطرف عنها. ثم يأتي آلمودوفار مسلحاً بموهبته الكبيرة وخبرته الطويلة في فن صناعة السينما ليشاغب ويجلي الغبار عن الكثير من الأفكار المنسيّة، أو يتطاول ويتجرأ على كل ما هو مؤسسي وسلطوي وينقد في شدة ولكن بمنتهى الثقافة والخبرة ما لا يجرؤ الكثيرون غيره من كبار الأسماء وأهمها حتى على الاقتراب منه».

ويقرأ الكتاب سينما «أليخاندرو أمينابار» الشعرية التي تحاكي الموت وتقارب نبض الحياة عبر أفلام «افتح عينيك» و«الآخرون» و«البحر من الداخل» وفيها يعمد أمينابار إلى تقديم مقاربة للموت «تسطع» من زاوية الحياة والطبيعة والحياة اليومية.

فرغم المواضيع المعقدة نجح امينابار في إعداد أفلام متألقة ببساطتها المضيئة، يكرم من خلالها الحزم والكرامة والحرية الإنسانية بنفس مأسوي وشاعري، في الوقت عينه يهزنا ويمزقنا من الأعماق.

ويتابع أفلام بينيلوبي كروز الساحرة الاسبانية في هوليوود، وطريقها المليء بالأشواك ونيران الشائعات، حيث استطاعت هذه النجمة الجميلة التي جاءت من اسبانيا أن تقتحمه لتقفز فوق كل أسوار هوليوود وتتربع على عرش القمة بها.. وتجربة أنطونيو بانديراس ابرز نجوم السينما العامين في الوقت الحالي.

أتى الكتاب في 101 صفحة من القطع الوسط ، وهو السادس لمحمد عبيدو بعد «السينما الصهيونية شاشة للتضليل 2004»، وأربع مجموعات شعرية «وقت يشبه الماء 1987 ـ الغياب ظلك الآخر 1992 ـ تمارين العزلة 1999 ـ ارتباكات الغيم 2004».

بينلوبي كروز في احد افلام بيدرو المودوفار

غلاف الكتاب

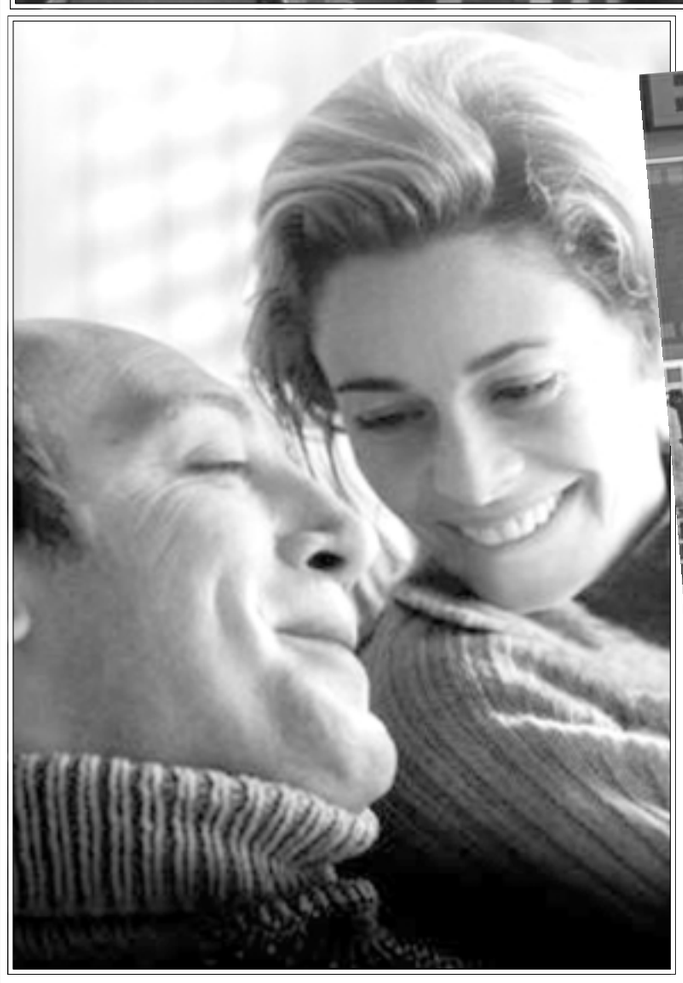

لقطة من فيلم «البحر من الداخل» للمخرج أليخاندرو آمينابار

ثلاث مؤسسات ثقافية ألمانية تباشر عملها في أبوظبي

أبوظبي ـ «القدس العربي»

ـ من جمال المجايدة:

يفتتح كل من الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي بدولة الامارات، وفرانك فالتير شتاينماير وزير الخارجية الألماني، خلال شهر ايار (مايو) الجاري ثلاث مؤسسات حكومية المانية متخصصة، في الثقافة واللغات والتعليم الاكاديمي والجامعي والاستشارات والتنمية في مدينة ابوظبي. وتعكس هذه المبادرة الاهتمام الالماني بتطوير علاقات التعاون الثقافي والاكاديمي والفني مع دولة الامارات العربية المتحدة، حيث ان هذه المؤسسات الألمانية المتخصصة ستعمل في ابوظبي تحت شعار (الثقافة و التعليم والتنمية).

ويضم المكتب المشترك في أبو ظبي مقاراً لكل من معهد غوتة الثقافي المتخصص في الثقافة واللغة، ومؤسسة التعاون الفني الألماني (جي تي زد) التي تعمل في مجال الاستشارات والتنمية ومكتب خدمات التبادل الأكاديمي الألماني (دي ايه ايه دي) العاملة في مجال التعليم الجامعي والاكاديمي.

وقال مسؤولون المان في المكتب المشترك لهذه المعاهد و المؤسسات الالمانية التي تعمل للمرة الاولى في ابوظبي ان الثقافة والتعليم والتنمية تعتبر من القضايا الرئيسية في دولة الإمارات العربية المتحدة اليوم وهو مجال اختصاص المؤسسات الثلاث معهد غوتة الثقافي، ومؤسسة التعاون الفني الألماني (جي تي زد) و مكتب خدمات التبادل الأكاديمي الألماني (دي ايه ايه دي)، مما يعني اقامة علاقات مباشرة تعزز الشراكة الاستراتيجية بين الجانبين في المجالات الاقتصادية والتنموية والثقافية والاكاديمية.

وقال الدكتور بيرنارد دوله الممثل المقيم للمكتب الاقليمي لمنطقة الخليج بالمؤسسة الالمانية للتعاون الفني الألماني (جي تي زد) ان المؤسسة الالمانية للتعاون الفني الألماني تأسست في عام 1975 كشركة خاصة تملكها الحكومة الألمانية، وهي هيئة تعاون دولية للاستشارات التنموية تقدم خدمات متعددة في أنحاء العالم لعل أبرزها الحلول المتميزة للتنمية السياسية، والاقتصادية، والبيئية والاجتماعية في إطار العولمة. واوضح ان المؤسسة الالمانية للتعاون الفني تعزز عمليات الإصلاح والتغيير البالغة التعقيد، وتهدف إلى تحسين الظروف المعيشية للأفراد على أسس مستدامة. وتعمل المؤسسة باشراف الحكومة الألمانية وعلى وجه الخصوص وزارة التعاون والتنمية الاقتصادية، كما أنها تعمل بالإنابة عن الوزارات الألمانية الأخرى، وأيضا بالتعاون مع عدد من المنظمات الدولية والإقليمية الأخرى مثل المفوضية الأوروبية، والأمم المتحدة، والبنك الدولي وشركات القطاع الخاص.

وقال انه في الوقت الراهن، تقوم المؤسسة بتنفيذ 2700 مشروع وبرنامج تنموي في أكثر من 130 دولة. كما تمتلك مكاتب في 66 من تلك الدول، بالإضافة إلى 9400 من المستخدمين يعمل حوالي ألف منهم في المكاتب الرئيسية في اشبورن، فرانكفورت ومين. وتعود علاقة المؤسسة بمنطقة الخليج إلى أكثر من ثلاثين عاما وتركز بشكل رئيسي على ثلاثة قطاعات هي التعليم، المياه والبيئة والبنية التحتية. وتغطي المؤسسة عبر مكتبها في منطقة الخليج كلاً من دولة الإمارات، ومملكة البحرين، الكويت، عمان،و قطر.

من جانبها اعربت الدكتورة الكي كاشل موني مديرة معهد غوتة في ابوظبي عن سعادتها لقرب افتتاح المكتب الرسمي والمؤسسات الالمانية الثلاث وقالت ان المركز الثقافي الألماني (معهد غوته) سوف يقدم خدماته الى كل دول الخليج انطلاقا من ابوظبي واشارت الى ان معهد غوتة هو منظمة غير ربحية معروفة عالميا تعمل على تعزيز اللغة والثقافة الألمانية، وله شبكة من الفروع تقدر ب 128 معهدا في 77 دولة في أنحاء العالم، بالإضافة إلى 16 معهدا في ألمانيا. ويعمل المعهد بالإنابة عن الحكومة الألمانية على توطيد أواصر العلاقات الثقافية. ويشجع مكتب معهد غوتة الجديد على دراسة اللغة الألمانية كلغة أجنبية في منطقة الخليج ويقوم بتنظيم الفعاليات الثقافية.

واوضحت انه في ايار (مايو) الحالي سيبدأ المكتب بتقديم دورات لغة ألمانية للراغبين في أبو ظبي، وسيكون التسجيل خلال الفترة من 13 إلى 15 من هذا الشهر على أن تبدأ الدراسة في 20 منه. وستكون الدورات للمبتدئين وأيضا للدارسين الذين لديهم خلفية بسيطة عن الألمانية. وفي فصل الخريف سيقدم المكتب تدريجيا دورات للمستويات الأعلى بالإضافة إلى إمكانية أداء امتحانات معهد غوتة المعترف بها عالميا طبقا والمستويات المطروحة.

بالإضافة إلى ذلك يتعاون المكتب مع المؤسسات والمعاهد التعليمية وينظم مجموعة دورات خاصة لدراسة اللغة الألمانية في أبو ظبي وفي ألمانيا مصممة خصيصا لمقابلة احتياجات الأفراد. كما يزود المكتب أيضا الخبرة للشركات لإقامة دورات لغة ألمانية، والمعلومات الخاصة بالبرامج المتعددة التي يقدمها معهد غوتة لدراسة اللغة في ألمانيا، والتي تتراوح من الأعمال التجارية إلى الدورات التمهيدية الجامعية أو دراسة اللغة الألمانية عن طريق كرة القدم أو الموسيقى، فتدريس اللغة لا يخلو من المتعة في أحيان كثيرة.

ويقول الدكتور فولفغانغ بونغيرز مدير مركز المعلومات في الهيئة الالمانية للتبادل العلمي ان افتتاح مركز جديد لمكتب خدمات التبادل الأكاديمي الألماني (دي ايه ايه دي) في أبو ظبي سوف يعزز علاقات التعاون الأكاديمي بين الجامعات والمعاهد العلمية الالمانية مع نظيراتها في دولة الامارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج العربية. واشار الى ان مكتب المعلومات الجديد في أبو ظبي سيقدم الخدمات إلى المعاهد الأكاديمية في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية وتوفير المعلومات للأفراد والمؤسسات والمعاهد الراغبة في التبادل الأكاديمي.

ويعتبر مكتب خدمات التبادل الأكاديمي الألماني أحد أكبر المؤسسات من نوعها في العالم. ومنذ عام 1950 ساعد المكتب 610 آلاف من الأجانب على الدراسة في ألمانيا، بالإضافة إلى عدد مماثل من الألمان لاكتساب الخبرة الأكاديمية في الخارج.

واشار الى ان هذا المكتب وعلى مر السنين اكتسب خبرة عالية واسعة وسجل حضورا دوليا متميزا. وهو مزود بأطقم من الخبراء والاكاديميين، بالإضافة إلى شبكة من الاتصالات الدولية على كافة المستويات. وتستفيد الشركات، والاتحادات، والمعاهد، والجامعات، والوزارات والحكومات من هذا المستوى الجيد النوعية من الخدمات وتسعى جميعها لاستشارة المكتب في الشؤون التي تتعلق بالتعليم والأبحاث والدراسات. وقال ان المكتب ينسق أيضا المشروعات الأكاديمية على نطاق واسع، ويتراوح دوره من الاستشارات حول كيفية إدارة الجامعات، إلى تأسيس وإنشاء الشبكات فيما بين المراكز التعليمية في أنحاء العالم.

تَخَابُبٌ

مُحَمَّد حِلْمِي الرِّيْشَة *

خيَانَة

أرْغَبُ ، اللَّيْلَةَ ، أنْ أخُونَكِ ..
نَعَم .. هكَذَا :
نَافِراً مِثْلَ شَقَاوَةِ بُرْكَانٍ
فَوْقَ
فِرَاشِ مُخَيِّلَتِي
مَعَكِ !

غشَاء

افْتَضَضْتِ غشَاوَةَ عُزْلَتِي
كَغشَاء عُذْرِيَّةٍ مُقَنْدَل ..
أنَايَ ، الآنَ ، زَوَّجَ رُوْحَنَا الوَاحِدَة !

عصيَان

آملاً أنَّكِ خُلاَصَتَهُنَّ وَأخْلَصَهُنَّ ،
وَحَقَّاً تَكَوَّنْتِ لِي هكَذَا ..
لِذَا :
عَصَيْتُ كُلَّ أوَانِهِنَّ
وَاصْطَفَيْتُكِ شَهْقَةً ؛
تَتَنَزَّهُ عَلَى شُرْفَةِ شَفَتَيْكِ
بِكُلِّ نِدَاءِ شَهْد !

اغْتِصَاب

مَاذَا سَأفْعَلُ بِسَاقَيَّ – الحَنَان ؟
أشَعَّ الوَقْتُ ظِلَّ عَتْمَةٍ
وَاخْتَفَيْتِ فِي غَيْمَةٍ كَيْنُوْنَتِي ..
إذاً :
فَلْتَسْمَحْ لِي جِهَاتُكِ بِاغْتِصَابِهَا :
بِرِقَّةِ قَمَرٍ يُشَاهِقُ تَنَفُّساً
وَبُرْقَةِ إيْقَاعٍ يَتَقَوَّسُ سُنْبُلَة !

جُمُوْح

بِتَضَوُّعٍ رَفِيْفِهِمَا وَكُرْزَتَيِّ أوَانِي
ثَمَّةَ يَمَامَتَانِ تَكْتُبَانِ :
مُنَاخَ تَنَفُّسِ البَهَاءِ /
سِيْرَةَ تَمَوُّجِ الأنِيْنِ /
فِرْدَوْسَ تَنَهُّدِ التَّجَاذُبِ /
صَهِيْلَ تَخَابُبِ الألَمِ /
سَرَاحَ تَهَدُّدِ النَّدَى /
.....
كَيْفَنِي لَمْ أزَلْ أُحَاوِلُ تَهْجِئَتَكِ ؟!

عُرِيّ

تَفَاجَأْتِ / حِيْنَ عَرَّيْتُكِ ..
تَفَاجَأْتُ / حِيْنَ سَتَرْتُكِ بِعُرْيِي !

دَلاَل

يَتَغَنَّجُ عِطْرُكِ :
مِنْ تَوَّيْجِ نَشْوَتِهِ
إلَى مَتَاهَتِي الشَّائِكَة..
يَتَرَاقَصُ صَخَبِي :
مِنْ عُلُوِّ نَارِهِ
إلَى مَوْقِدِكِ – انْطِفَائِي ..

ألَم

انْفِرَاجٌ يَتَرَبَّصُ لُعَابَ
بَصَرِي ..
انْتِشَارٌ يَتَرَيَّضُ بَيْنَ مُمَدَّدَتَيْنِ ..
أنْفِلاَتُكِ إلَى كُلِّ الجِهَات ..
.....
أنَا أنَاتُرُكِ ألَمَ لَذَّة
أنْتِ تُشَاعَرِيْنَ شَهِيَّتِي !

مُرَاوَدَة

أصْعَدُكِ / مِنْ أعْلَى
إلَى أسْفَلَ
أنْسَابُ / أغْصَانَكِ ثَمَرَةً
ثَمَرَةً
أشْبَعُكِ / وَلاَ أقْطِفُكِ
لِهذَا :
يَظَلُّ شَبَعِي جَائِعاً إلَيْكِ !

خُشُوْع

هَيْبَتِي أتَنَزَّلُ
عَلَيْكِ
سَوْطَاً حَانِياً
ثُمَّ أنْصِتُ إلَى هرَّةِ خُشُوْعِكِ
مِنْ شِدَّةِ شُبَاطِهَا !

امْتِزَاج

شَرِهَةٌ أصَابِعِي بِفُحُوْلَةِ حُضُوْرِهَا ..
لَسْتُ أشْتَهِي سَخَاءَ سُكَّرٍ هَوَائِكِ لأمْزِجَهُ
بِمَاءِ حُلْمِي /
فَقَطْ :
أُرِيْدُكِ أنْ تَبْخَلِي بِالغِيَاب !

غَيْبُوْبَة

يُدَاعِبُنَا حُضُوْرُنَا المَبْتُوْرُ :
فَنَتَلَهَّى بِغَيْبُوْبَةِ نُعَاوِدُهَا ،
وَنَتَعَدَّدُ عَلَى غِيَابِهَا ..
كَم يَحْزُنُهَا تَرْكُنَا نَفْتَرِقُ
عِنْدَ التِقَاءِ آخِرِ قُبْلَة !

* شاعر من فلسطين

تداعيات

قبل أن تقول كلمة الوداع الأخير للصحراء الموريتانية

بدي ولد ابنو*

ـ1ـ

■ ربما يكون آخر نص كتبتْه جنيفييف كلانسي هو تقديمها للترجمة الفرنسية لكتابي "اسفار العشق والموت". ولكن الموت والسفر ـ أو الرحيل ـ كحقيقة وكدلالة ظلا دائما حاضريْن بقوة في مختلف أعمالها. فجلاء رؤية الإنسان لشرطه لا يتأتى إذا لم تكن حقيقة موته وعبوره حاضرة باستمرار في وعيه. "نحن فضاء في اللاحركة، العبور واحدا واحدا، في إنسان فسيح. الكلمات ترافقنا في اللانهاية حيث ننسج افتراقاتنا" أو تسكننا حتى النهاية. لا سيما حين تأتي الأخيرة فجأة ليبدو العبور الحقيقةَ الدنيويةَ التي لا تقبل مساومة. رحلتْ الشاعرة والفيلسوفة جنيفييف كلانسي عن هذه الأرض قبل أن تقول كلمة الوداع الأخير للصحراء الموريتانية وقبل أن تقوم بطقس "عبور الصحراء، هذه الفيزياء الروحية القادرة وحدها على تحريرها من التيه". واصطدم ما تسميه "الشغف بالحضور في العالم" بالغياب الذي ستذوقه كل نفس. كان مقررا أن نشارك معا في ندوة شعرية تكريمية لها ينُظمها معهد اللغة والآداب العربية بباريس بالتعاون مع دار نشر الآرمتان. كما كانت غداة الثالث أغسطس قررتْ أن تسافر معي إلى موريتانيا لترى "أرض الحاج ولو مرة أخيرة". وفجأة وأنا في لندن قبل ثلاثة أيام من موعد ندوتنا وقعتُ مصادفة على خبر رحيلها. كنتُ اتصفح رسائل الكترونية فإذا بفقرة تشير إلى تأبينها وتحمل اسمي كأحد المؤبنين ثم لم تلبث الأنباء تتالى في الصحافة وتؤكد ما لا راد له. اتصلتُ بالصديق أسامة خليل مدير المركز فوجدتُه كما توقعتُ غارقا مرة أخرى في وجعه. عرّجتْ جنيفييف على مكتبه بالحي اللاتيني في جولتها الزوالية كالعادة ورتبا معا ما بقي من إجراءات الندوة ثم بعد ذلك بساعات اتصل أحد الأصدقاء ليخبره بالفاجعة. هكذا وفي لمحة بصر صار التكريم تأبينا. لم يكن رحيلُها موتَ الفجأة الوحيد الذي عرفنا في الأشهر الأخيرة بل كمْ خسرنا من الأصدقاء هذه السنة ؟ بدا الموتُ وقد عزم أن يطوي المسافات دفعة واحدة. إنه المارد كما كتب أخو جنيفييف الشاعر فيليب تانسلين في نصه التأبيني :

"بين قرب الموت الذي لم نعد نراه وعرض الحياة الأكبر الذي نسكنه بعماء، أي نزهة تستكشفنا، أي إشارات تشكل المارد الذي يصيح في وجه صمتنا."

ـ2ـ

أول مرة التقيتُ جنيفييف كلانسي كانت شتاء 1999 في سهرة ببيت الصحافي الانجليزي جريج اكسلي رئيس تحرير مجلة "ريبوست". قرأتْ لنا على اوتار "جمبري" صديقي الفنان المغربي مصطفى الصويري عدة نصوص شعرية قالت عنها إنها معارضة لما تسميه حائطيات مالارمي. كنتُ قرأت لها وعنها ولكني لم أكن بعد أعي موقعها الطليعي في الشعر العالمي المعاصر. وعندما قدمتْنا لبعضنا إحدى المدعوات وقالت إني موريتاني صمتتْ جنيفيف لعدة لحظات ثم علقتْ بشيء من الاقتضاب "أنا أيضا موريتانية". وأعدتُ النظر إليها دون أن أجد في ملامحها ما يشفع لكلماتها. لا ملامحها ولا اسمها ولا التقديم الذي تحمله عادة أغلفةُ كتبها. علّ الإجابة تكون في احدى قصائدها التي كتبتْها من بعد : "العطش الأول الذي يربط الانسان بالنور ليس حنينا." ورغم ما كُتبَ عنها وبعشرات اللغات بما فيها العربية بل ورغم ما عرضتْ له هي من سيرتها الذاتية فلم يكن معروفا عنها في الأوساط الأدبية والفلسفية سوى أنها أصلا وفرعا فرنسية. شرحتْ لي جنيفييف قبل طي السهرة أن جدها موريتاني قدم من أعماق الصحراء إلى المتروبول الفرنسية في العشرينات من القرن المنصرم. وأن اسمه الحاج. كانت تضغط على مخارج الحروف حتى تتخلص من اللكنة الفرنسية وتقترب من نطق الحاء. زارت موريتانيا كما حدثتني سنة 1989 ومضت أياما بانواكشوط تتردد على الشاطئ الأطلسي. شيء ما من تلك الأجواء بقي في دفاترها "فالليل ينحت الخرابات كأنه يمحو عنها الهلع. المدينة كانت من عواقب غير حقيقية". ولكن جنيفييف لم تجد سبيلا للتعرف على "أهلها" فلم تكن معلوماتُها عن أصل الجد تعدو كونه "الحاج" مما لا يغني شيئا في مذهب الأنساب وأشجارها التي افتتن بها أهل الصحراء. عرفتْ كذلك أن أفرادا من عائلتها قد هاجروا واستقروا في وجدة بالمغرب واحسب أن ذلك كل ما استطاعت تجميعه عن أصولها. أما الصحراء "فأمر بالغ القوة". رددتْ مع فواصل صامتة العبارة الأخيرة وكأنها لا تريد أن تصف علاقتها بتلك الأرض العصية الا بقدرما تحاول أن تتفادى الدخول في التفاصيل .

ـ3ـ

في المركز الدولي البين جامعي لإبداع الفضاءات الشعرية الذي أسسته رفقة أخيها فيليب تانسلين وعشرات الكتاب الآخرين ظلتْ جنفييف تختبر الشعر ميدانيا والميدان شعريا. غايتها المعلنة هي إدخال الشعر في مواجهة مع الفنون الأخرى في سبيل مواصلة ما تسميه "السفر بأقدام حافية مع المستضعفين". ولهذا كانت علاقة التصوف الاسلامي بالشعر منطلق أغلب دراساتها ومنه كذلك يأتي اهتمامها التخصيصي ببعض الشعراء الألمان "فنداء هولدرلين كم هو داخلي من ظل يمضي من الأشياء إلى بدئها، سؤال يلقي الصورة بعيدا عن نهايتها. وكم ترَنْ هذه الليلة بنور الحلاج." ثم إلى ذلك أضافت اهتماما نادرا في وسطها حيث أنكبت على دراسة كل ما حصلتْ عليه مترجما إلى اللغات الأوربية من الحديث النبوي الشريف فهي تسميه نهر المجازات المتدفق. كان "تصوفها"، إن جازت العبارة، يجمع بين نمط ما من "الزهد الثوري" ومن "الثورة الرصينة". هذا الربط بين التأمل الفلسفي والشعري وبين الفعل الميداني هو ما جعل المضطهدين همها الميداني والفكري معا. فوقفتْ مع الثوار الجزائريين ثم مع الفلسطينيين. هو أيضا ما أغراها سنة 1973 بتأسيس لجنة الدفاع عن حياة وحقوق العمال المهاجرين التي حققت انتصارات معتبرة في جبهة الحقوق الاجتماعية. وهو كذلك ما جعلها تكتب أحد أشهر نصوصها عن غسان كنفاني وعن عالمه السردي كتجسيد ـ من وجهة نظرها ـ للاندماج الجدلي للواقع مع الأدب، للحياة مع الكتابة.

ـ4ـ

في الصربون ظلت كلانسي إلى رحيلها الفجائي أستاذة الفلسفة الجمالية عبر "جمالية العنف" ـ عنوان أطروحتها للدكتورا ـ و"جمالية الصيرورة" و "جمالية الظل" غير أن العنف الجمالي بالنسبة لها كان شيئا آخر مخالفا لدلالته المتداولة فكم ظلتْ تمقت الهمجية والعدوانية. في عدد "لوند ديبلو ماتيك" لشهر اكتوبر من السنة قبل الماضية كتبتْ مارينا داسيلفا " في أعمالها الفلسفية والشعرية ظلتْ جنفييف كلانسي تسائل العنف. بالنسبة لها كما بالنسبة لجيني (جان جيني) يتميز العنف عن الشراشة ... عندها أيضا أن صبرا وشاتيلا تمثل عنصرا محددا للفكر والكتابة. تريد أن ترى تحت ترسبات الرعب والفظاعات والتضحيات التي تغطي العنف ... ليس لنقل معرفة ما ... ولكن في إطار التأكيد على أن من واجب التاريخ كما يتأمله الشعراء والفلاسفة أن يكون قبل كل شيء تاريخ المضطهدين."

جنيفييف كلانسي ولدتْ في باريس وفيه عاشت ودرست ودرّست وتوفيت ولكنها ظلت متنقلة في العالم تارة ببدنها وتارة بذهنها. في العالم مسافرة وعنه منفية. بل إن الترحال والصحراء والبداوة هي أكثر الكلمات ترددا في قاموسها. وآخر ندوة أمسية شعرية جمعتنا معا كانت يوم 19 مارس من السنة الماضية بمسرح لسيرنير. الندوة حملتْ عنوان "منفيون من القارات الخمس". وعندما سألتُها إن كانتْ منفية من موريتانيا أم من فرنسا، أجابت بابتسامتها الهادئة : " أنا يابن العم منفية من القارات السبع".

* كاتب موريتاني مقيم في باريس
beddy_beddy@yahoo.fr